تغريدة قاتله

رغم برودة شتاء ديسمبر، وكعادته فجر كل صباح، ما أن ينطلق رنين المنبه الصغير المجاور لفراشة حتي يفتح عينيه متأهبًا، ظنًا أن هذا اليوم يحمل له ميلاد جديد، رغم أنه تعود علي اكتشاف أن تلك الظنون من النوع الأثيم، راح يهز رأسه يمينًا ويسارًا، نافضًا ما علق بها من بقايا إحباط أيام كثيرة مضت، أزاح غطاءه ثم وقف مرة واحدة علي قدميه، وراح يتمطع يمينًا ويسارًا نافضًا عنه حنين العودة إلي الفراش مرة أخري، قبل أن يتجه إلي جهاز الكمبيوتر صديقه الوحيد.

شاب صغير، أسمه كريم، لم يتجاوز السابعة والعشرين، لذكائه الخارق لقبه زملاء جامعته السكندرية بـ«جيتس البحر المتوسط»، لعبقريته في مجال الكمبيوتر والبرمجيات، كان يظن أنه وبمجرد تخرجه ستتصارع الكثير من الشركات لاختطافه، ولكنه كما قُلنا تعود أن الكثير من الظن من النوع الأثيم، مرت خمس سنوات علي تخرجه، ولم يري هذا الصراع، أجري المئات من المقابلات، ولم يجد أي متحمس له، لم تنجده عبقريته، لم يسعفه تفوقه، فقط لأنه إنسان بسيط، لم يمتلك يومًا ذلك الفانوس السحري المُلقب بالواسطة، ليحصل علي أبسط حقوقه.

شـاب صغيـر، رغـم سـنوات عمـره تلـك لـم يبـدأ حياتـه بعـد، يقـف كمـا يقـول دائمًـا في منطقـة وسـطي بـين ميـلاده كإنسـان ووفاتـه، مـن يـراه لا يـدرك انـه في العقـد الثالـث مـن عمـره، بـل كهـل عجـوز، أطلـق لحيـة صغيـرة مازالـت في مرحلـة النمـو، وشـعره طويـل أسـود بـدأ يخـط الشـيب بعـض خصلاتـه، ووجـه شـاحب مسـتطيل اختفـت معالـم لونـه الخمـري، يميـل إلـى صفـرة شـخص مريـض، أمـا عينيـه الضيقتـين، فكانـت النافـذة التـي يمكـن أن نـرى مـن خلالهمـا مـا يجـري في عالمـه الداخلـي، دائمًـا قلقتـان، نقـرأ فيهمـا الانتظـار والأمـل والقلـق، هكـذا صنعـت منـه السـنوات الخمـس الماضيـة.

لـم يشـعر كـريم بتلـك التـي وقفـت علـي بـاب غرفتـه تتأملـه بحـذر مريـب، تلـك الأم التـي دائمًـا مـا تـردد كلمـا رأتـه بصـوت خافـت، ليتنـي مـا أنجبتـك لتعانـي هـذا المصيـر، تحـدت أمـراض شـيخوختها ووقفـت خلفـه مُحملقـة، تراقـب ابنهـا الوحيـد بعـين مُشـفقة، شـيء مـا جعلهـا لا تغمـض العـين منـذ ودعتـه ليلـة أمـس، باتـت ليلتهـا تصلـي وتدعـو لـه، كأن شـيء مـا سيصيب وليدهـا، اضطـراب قلبهـا، ارتجافـة جفنيهـا، تنبئانهـا بذلـك.

التفـت كـريم فجـأة ليجـد أمـه تقـف هكـذا بـلا صـوت، فقـال بصـوت هـادئ: «مـاذا هنـاك يـا أمـي»، تنهـدت أمـه قائلـه بصـوت غلـب عليـة التوتـر: «لا شـيء يـا ولـدي.. هـل سـتخرج مبكـرًا اليـوم»، أطـرق رأسـه حزنًـا ثـم اتجـه إلـي جهـازه متمتًـا بصـوت إنسـان يتألـم، لـن أخـرج اليـوم يـا أمـي، جـدول اليـوم لا يتزاحـم فيـه تلـك المقابـلات

السخيفة، سأفعل كما فعل السابقون، إما أن أعيش سجين هذه الغرفة لاعنًا سنوات ضاعت بلا فائدة تُذكر، أو أن أمزق تلك الورقة عديمة الفائدة وأبحث عن شيء أخر لا علاقة بها، آلا ترين أن هذا حلاً يرضي جميع الأطراف.

التفت كريم إلي جهازه، تجاهل تلك الأم التي لم تذق طعم النوم ألمًا عليه، لم تجد كلمات يمكن أن تواسيه بها، فقط، تركت العنان لسيل من الدموع الصامتة، قبل أن تتركه متجهة إلي غرفتها، في حين انشغل ابنها في متابعة صفحته علي موقع التواصل الاجتماعي، مشرد الذهن، لا يبالي بما كتب عليه، فقط يتنقل هنا وهناك بلا أي هدف، حتي جاءته تلك الرسالة، لم تكن من أحد أصدقائه، ولكنها تمكنت من لفت انتباهه، فراح يقرأ فحوي ما جاء بها، بين الحين والأخر تتسع عينيه.

«السلام عليكم يا أخي في الإسلام.. كل أخ مسلم أخ لي لم تلده أمي، وأنا أخ لك عاني كثيراً إلي أن وجدت ضالتي.. وجدت أن الإسلام هو الحل.. الحل في حياة كريمة.. الحل في مساواة بين جميع الناس مهما اختلف الدين، ومهما إختلفت اللغة، ومهما إختلف اللون.. لذلك يطلقون علينا إرهابيين.. يتهموننا بأننا قتلة لأننا لا نريد سوي تطبيق شرع الله.. لم يفزعوا من قتلهم الملايين في العراق وفلسطين والصومال وأفغانستان.. هم الإرهابيون يا أخي وليس نحن»

تلك كانت الرسالة التي استرعت انتباه كريم، بل جعلته يستسلم بكل حواسه لكل حرف جاء بها، وكان من الطبيعي أن تثير شاب بسيط مثله، شاب عاش عمرة يبحث عن تلك الحياة الكريمة، فهو مثل الكثير من الذين تربوا وعاشوا بحثًا عنها، شاب من السهل ان يقع فريسة لتلك الرسائل العابرة للمكان والزمان، مجهولة المصدر والهوية، ولكنها عادة ما تنجح في اللعب علي ذلك المرض الذي يُصيب كل من أصابته تلك الحسرة وخيبة الأمل، وكانت تلك القصة التي لعبوا بها علي كريم.

●●●

خلف جهازه جلس إيتان بن نوعام يحتسي القهوة، بين الفينة والأخرى ينظر إلي صفحته التي حملت اسمًا غير اسمه، وصورة غير صورته، يتابع ذلك الحديث الذي يدور بينه وبين شاب ليس من مواطني أبناء جلدته، والذين ينتمون لذلك الكيان الذي زرعوه في جسدنا المريض، كعازف محترف راح يلعب علي أوتار جراح ذلك الذي يتحدث معه، يُحدثه عن تلك الأحلام التي دائمًا ما تراوده، عن تلك الحياة التي أنهك عقله وجسده بحثًا عنها، نجح أخيًرا في ان يجذب انتباهه كخطوة أولي لنجاح خطته.

في تلك اللحظة اقتحم رجل تلك الغرفة، يرتدي حلة رجل جيش زيتيه اللون، انتفض إيتان بمجرد أن رآه يقف أمامه، رفع يده بالتحية العسكرية، ثم قال بصوت قوي، أمر سيدي ذلك الشاب أصبح جاهزًا لما نريد، تقدم الضابط من جهاز إيتان، راح يراجع مناقشته مع ذلك الشاب، وكيف أنه أضحي مستعدًا للانضمام دون ان يدري إليهم.

وبينما كان الضابط يتابع باهتمام صفحة ذلك الشاب، تقدم إيتان منه بهدوء قائلاً، لا تقلق سيدي، هذا الفتي سيكون لنا صيدًا ثمينًا، منذ أكثر من ستة أشهر وأنا أضعة تحت مراقبتي الشخصية، وهناك قاعدة معلومات عن كل ما تعرض له من ظلم وقهر، وعن كل ما كتبه من يوميات ترصد حالة البؤس التي يعيشها، التفت الضابط إليه متسائلاً، وكيف سنتعامل معه ونقنعه بالانضمام إلينا يا إيتان، لاحت علي وجهه تلك الابتسامة الصفراء التي لا تليق إلا به، قبل أن يقول ساخرًا، ولماذا يا سيدي نسعى نحن إليه، ورجالنا هناك قادرون علي الوصول إليه، فأنفجر الاثنين بتلك الضحكات الشيطانية وقد أدركوا أنهم أخيرا وضعوا أيديهم عليه.

جلس إيتان بن نوعام أمام جهازه مرة أخري باحثًا عن صفحة شخص أخر، ثم راح يدون رسالة بأمر مدفوع الأجر، «عزيزي السيد بسام، في ارض النيل شخص يدعي كريم، بلغ من

الجاهزية ما يمكنك من الاستفادة منه، يؤمن بأن الدماء تطهر تلك الروح الشريرة التي تحلق فوق رؤوسكم، وأن جسده بُعثت فيه الروح من أجل إعلاء كلمه اللّه علي تلك الأرض، وإني أرسل إليكم صفحته الشخصية لتجنيده علي الفور، التوقيع المهدي المنتظر، ثم وضع رابط صفحة ذلك المصري المطحون أسفل رسالته.

●●●

«أين أنت يا صديقي.. لماذا لم تأت في الموعد».. بهذا العبارة استقبل شريف رسالة صديقه علي موقع التواصل الاجتماعي، فقد كان بينهم موعداً للتنزه، تلك الاضطرابات التي اشتعلت في المنطقة التي يعيش فيها، وحرب الشوارع التي اندلعت منذ أمس بين مؤيدين ومعارضين، منعته من الخروج خشية الإصابة أو القبض علية.

«أسفل منزلي كمين يعج بالضُباط ومدجج بالسلاح».. إجابة عفوية قد تبدو بسيطة، ولكنها في واقع الأمر الإجابة التي ينتظرها البعض، فعلي بُعد آلاف الكيلو مترات، يجلس ذلك الضباط خلف شاشته يلتقط تلك العبارة التي يكتبها، ومن حديثهم المتبادل علي الخاص يمكنه أن يعلم كل معلومة عن موقع الكمين ونوعية الأسلحة وحجم العدة والعتاد، بل وعدد ضباطه، واقرب نقطة إمدادات يمكن أن تصلهم.

«بوووووووووم».. فجأة وبدون مقدمات يدوى في سماء القاهرة انفجار ضخم يهز أرجاء المدينة الساكنة، تسود الأجواء اضطراباً وهلعاً من هول المشهد الأليم، الأشلاء في كل مكان، وما بقى من أجساد الجنود تفحم، اشتعلت النيران في السيارات ومداخل بعض المنازل، انطلقت الحناجر بالصُراخ هنا وهناك، وكالعادة فر الجبان بفعلته الخسيسة بعد أن أدي مهمته.

●●●

لا ثورة في تلك المدينة الجائعة